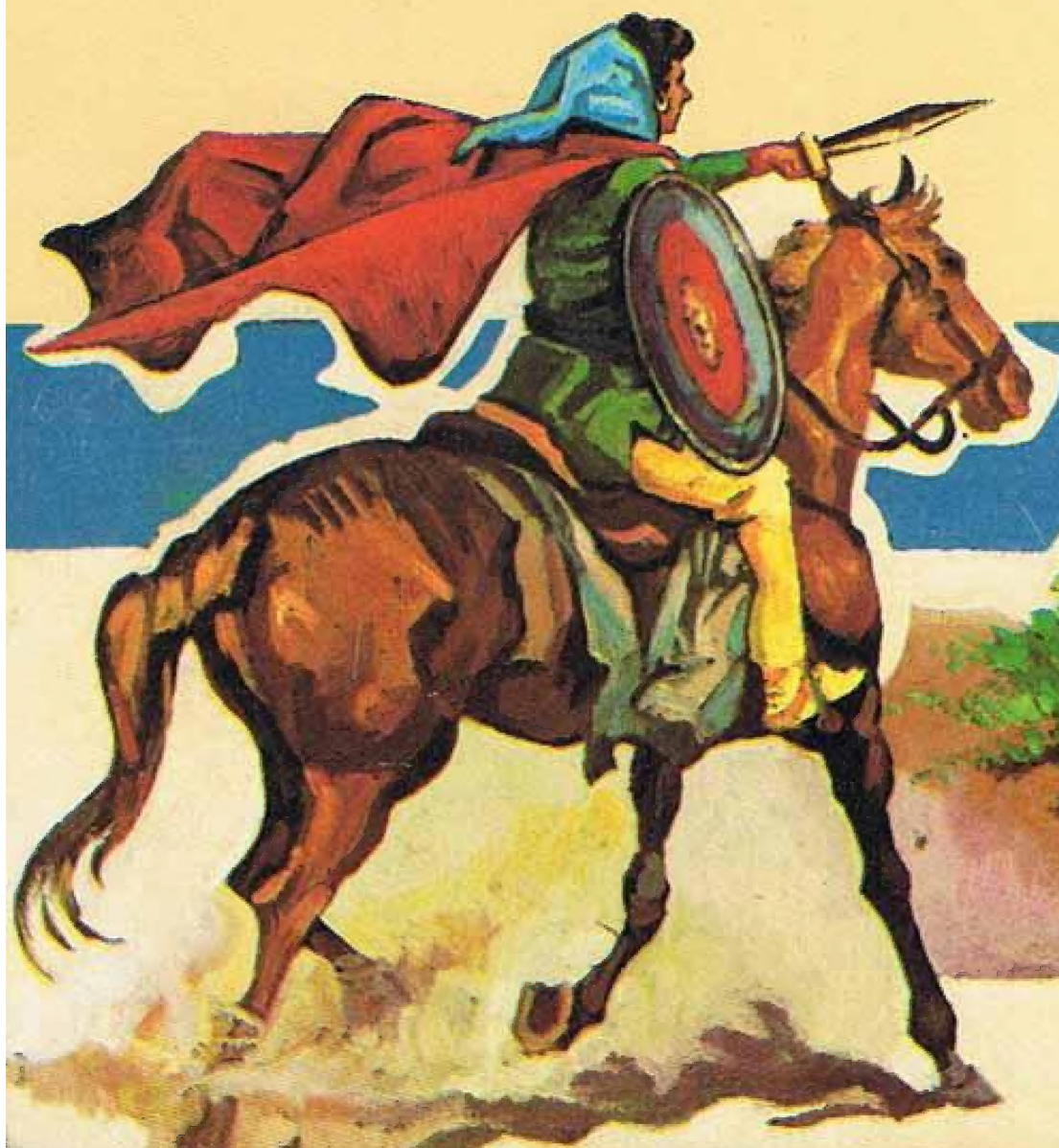
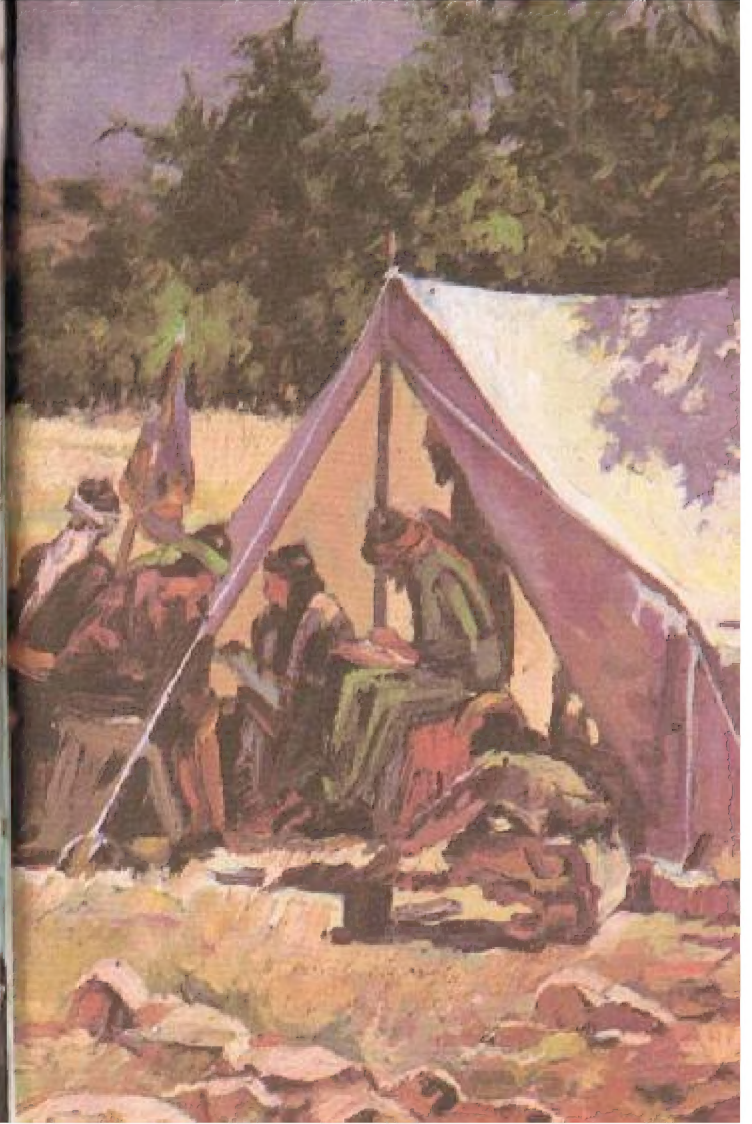
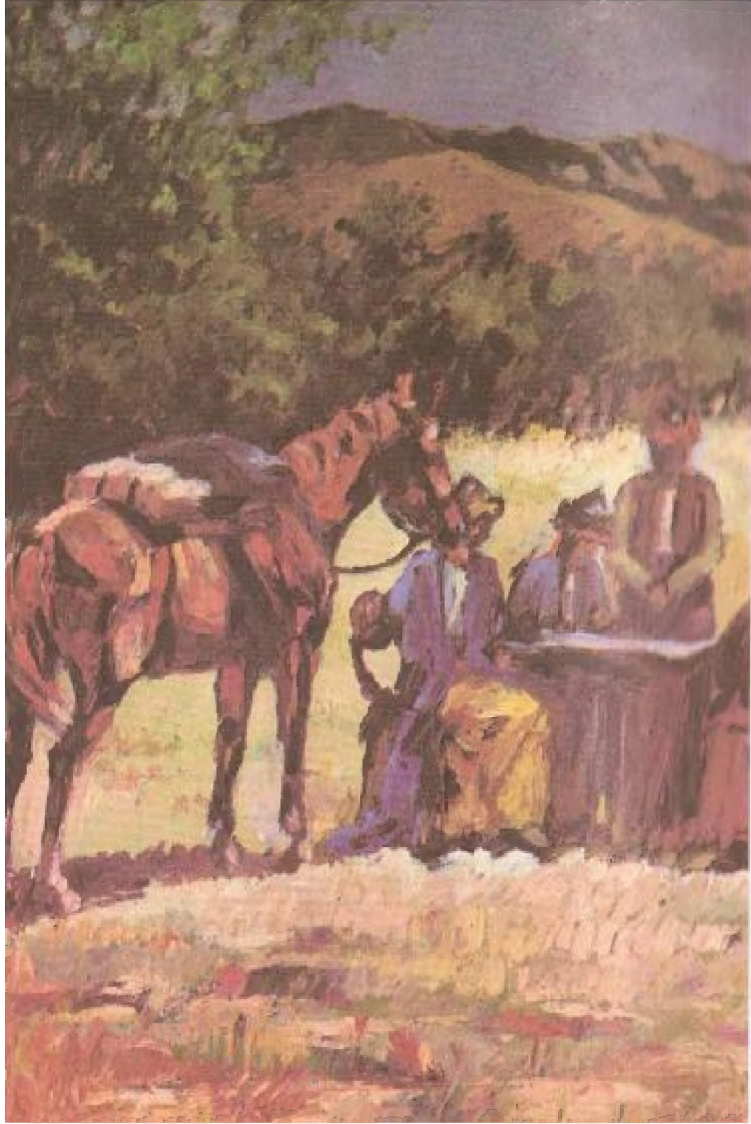


حکایات من تاریخ العرب



حکایات
سین تاربخ العربی



حكايات من تاريخ العرب



إعداد : حامد علي عطاري
رسوم : حمدي عبد الصمد

مكتبة لبنان
بيروت

© الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

١٠ أ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي - الجيزة
جميع الحقوق محفوظة : لا يجوز نشر أى جزء من هذا الكتاب ، أو تخزينه
أو تسجيله بأية وسيلة ، أو تصويره دون موافقة خطية من الناشر .

الطبعة الثانية
رقم الإيداع : ٢٢٠٧ / ٨٨
التسجيل الدولي : ISBN ٩٧٧-١١٤٤-٦٥-٠٠

طبع بمطابع دار المعارف - القاهرة

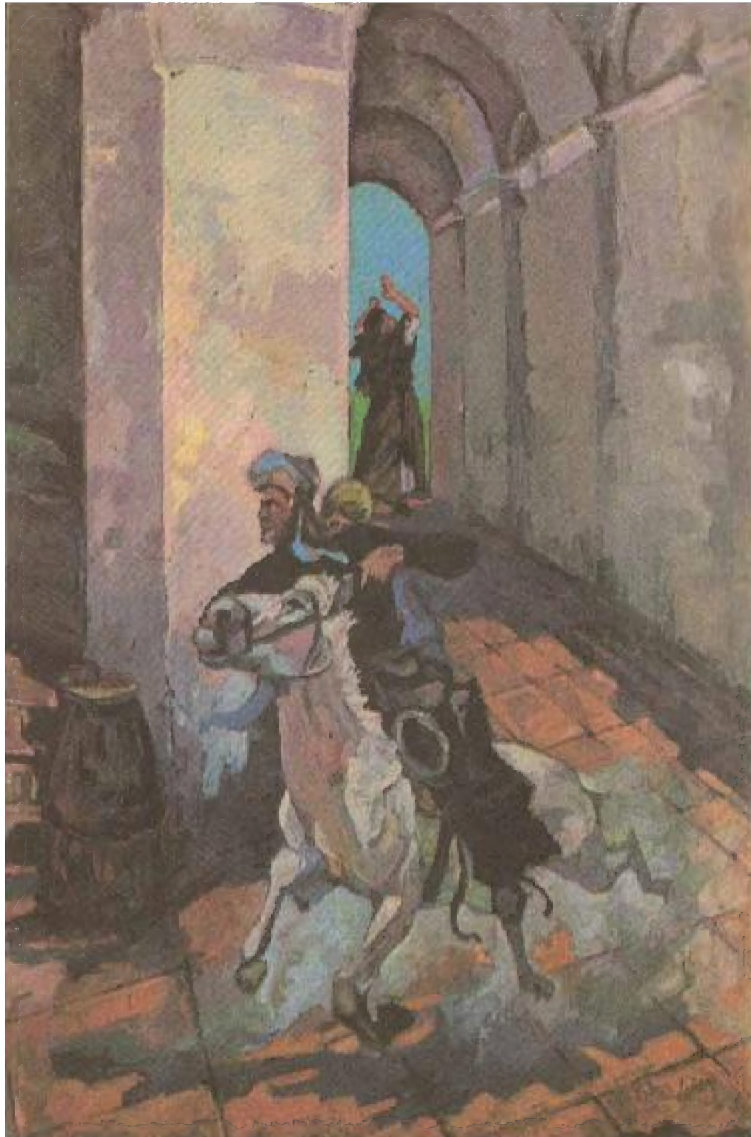
الْعَرَبِيُّ وَكَرَمُ الضِّيَافَةِ

كَانَ مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ عَرَبِيًّا شَجَاعًا ، لَطِيفَ الْمَعَشَرِ ، كَرِيمَ الْخُلُقِ . حَارَبَ فِي صُفُوفِ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ ، وَانْتَصَرَ فِي عِدَّةٍ مُعَارِكٍ . وَعِنْدَمَا تَقَدَّمَ بِهِ السَّنُّ ، عَيَّنَهُ الْخَلِيفَةُ عَلَى وِلَايَةِ خُرَاسَانَ فِي بِلَادِ فَارِسَ . وَقَدْ رَوَى التَّارِيخُ الْعَرَبِيُّ الْقِصَصَ الطَّرِيفَةَ عَنِ ابْنِ زَائِدَةَ ، تُورِدُ إِحْدَاهَا .

ذَاتَ يَوْمٍ ، يَتِمَّا كَانَ مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ يَمْتَنِعُ صَهْوَةً حَوَادِثُ فِي شَارِعٍ مِنْ شَوَارِعِ بَغْدَادَ ، رَأَى رَجُلًا يَتَكِي ، وَيَصْرُخُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ : « أَيْنَ أَنْتَ يَا ابْنَ زَائِدَةَ ؟ أَغْنَيْتَ مِنْ هَذَا الشَّرْطِيِّ . وَمَا إِنْ سَمِعَ ذَلِكَ حَتَّى هَبَّ فِي آخَالٍ لِتَجْدِيهِ . أَرَدَفَهُ خَلْفَهُ ، وَلَكَّرَ جَوَادَهُ وَتَابَعَ السَّيْرَ دُونَ أَنْ يَدْرِي أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ الْمُسْتَعْنِيَّ هُوَ مِنْ أَعْدَاءِ الْخَلِيفَةِ . أَمَّا الشَّرْطِيُّ فَقَدْ أَسْرَعَ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَأَبْلَعَهُ بِمَا حَدَّثَ .

غَضِبَ الْخَلِيفَةُ غَضَبًا شَدِيدًا وَاسْتَدْعَى ابْنَ زَائِدَةَ ، وَسَأَلَهُ : « لِمَ تُسَاعِدُ أَعْدَائِي عَلَيَّ ؟ هَلْ تَطُنُّ أَنَّكَ أَكْبَرُ مِنْ الدَّوْلَةِ ؟ »

أَجَابَهُ ابْنُ زَائِدَةَ : « حَاشَا لِلَّهِ يَا مَوْلَايَ ، مَا كُنْتُ أَذْرِي أَنَّ الرَّجُلَ عَدُوَّكَ . لَقَدْ نَاصَرْتُكَ ، كَمَا نَاصَرْتُكَ وَالِدَكَ مِنْ قَبْلُ ؛ فَقَدْ



قَدَّمْتُ لِرَؤُوسِكَ أَجَلَ الْخِدْمَاتِ ، وَهَذَا أَتَقَاتِي فِي خِدْمَتِكَ .
اسْتَجَارَ بِي الرَّجُلُ فَأَجَرْتُهُ ، وَلَنْ أَدْعَ أَحَدًا يَأْخُذَهُ مِنِّي ؛ فَالْعَرَبِيُّ
كَرِيمٌ فِي طَبْعِهِ وَيَحْمِي ضَيْفَهُ . هَلْ لِي أَنْ أَطْمَعُ فِي كَرَمِ مُوَلَايِ
وَأَسْأَلُهُ أَنْ يَصْفَحَ عَنِّي إِكْرَامًا لِخَاطِرِي ؟

سَرَّ الْخَلِيفَةُ مِنْ قَوْلِ مَعْنِ بْنِ زَائِدَةَ أَيَّ سُرُورٍ ، وَعَفَا عَنِ
الرَّجُلِ .

عَبَّاسٌ وَيَحْيَى

فِي إِحْدَى الْأَمْسَاءِ ، وَتَيْنِمَا كَانَ الْخَلِيفَةُ الْمَأْمُونُ يَجْلِسُ فِي
رَدْمَةِ قَصْرِهِ ، وَمَعَهُ عَدَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ ، دَخَلَ عَلَيْهِ وَالِي خُرَاسَانَ
بِرُّفٍ إِلَيْهِ الْبَشَائِرَ :

« لَقَدْ دَخَرَ حَيْشُكَ الْأَعْدَاءَ ، وَقَبَضَ عَلَى رَعِيْبِهِمْ . لَقَدْ جِئْتُ بِكَ
إِلَى بَغْدَادَ ، وَهُوَ وَقَفَ بِبَابِ قَصْرِكَ بِالنِّظَارِ مَا تَأْمُرُونَ بِهِ . »

نَظَرَ الْخَلِيفَةُ إِلَى عَبَّاسٍ ، أَمِيرِ الشَّرْطَةِ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ الرَّجُلَ إِلَى
السَّجَنِ ، عَلَى أَنْ يُعِيدَهُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي لِيَنْتَظِرَ فِي أَمْرِهِ . فِي
الطَّرِيقِ إِلَى السَّجَنِ سَاوَرَتْ الْمَخَافَةُ أَمِيرَ الشَّرْطَةِ أَنْ يَلْبَسَ السَّجِينُ
إِلَى الْفِرَارِ . قَلَبَ الْمَوْضُوعُ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ ، فَقَرَّرَ أَنْ يَصْنَحَهُ مَعَهُ
إِلَى بَيْتِهِ بِدَلِّ السَّجَنِ لِيَكُونَ تَحْتَ رِقَابَتِهِ الْمُبَاشِيرَةَ . أُعْطِيَ التَّعْلِيمَاتِ
بِتَوْفِيرِ الْحِرَاسَةِ الْكَافِيَةِ طَيِّلَةَ اللَّيْلِ . لَمْ تَعْمُضْ لِعَبَّاسٍ عَيْنٌ بَلْ ظَلَّ
سَاهِرًا . وَفِي الْفَرَجِ الْأَخِيرِ مِنَ اللَّيْلِ بَدَأَ التَّعَاسُ يُغَالِبُ أَجْفَانَهُ .
عِنْدَهَا بَعَثَ بِقَلْبِ السَّجِينِ وَأَجْلَسَهُ أَمَامَهُ ، وَأَخَذَا يَقْجَازِبَانِ أَطْرَافَ
الْحَدِيثِ .

بَدَأَ عَبَّاسٌ بِمَسْأَلَةِ السَّجِينِ : « مِنْ أَيِّ الْبِلَادِ أَنْتَ ؟ »

فَاجَابَهُ السَّجِينُ : « إني من مدينة مَرُو . »

عندما تَرَدَّدَ اسْمُ مَرُو عَلَى مَسْمَعِ عَبَّاسٍ قَالَ لَهُ :
« يَا هَذَا ! إني أُحِبُّ مَرُوَ حُبًّا شَدِيدًا ، وَلِهَذَا الْحُبِّ حِكَايَةُ أُرْوِيهَا
لَكَ : كُنْتُ فِيمَا مَضَى أَمِيرَ الشَّرْطَةِ فِي مَرُو . وَذَاتَ يَوْمٍ شَاهَدْتُ
جُمُوعًا مِنَ الرِّجَالِ يُقَاتِلُ جُنُودَ الْوَالِي . وَلَمَّا اشْتَدَّ الْقِتَالُ ثَوَّاهُتْ مَعَ
الْوَالِي فِي الْقَصْرِ ، وَلَكِنْ كَانَ مِنَ الْخَطَرِ الْبَقَاءُ فِيهِ طَوِيلًا . وَفِي
إِحْدَى اللَّيَالِي ، نَزَلْتُ مِنَ فَوْقِ السُّورِ ، وَوُثِّتَ الْأَذْيَارُ حَتَّى بَلَغْتُ
مَكَانًا مَأْمُونًا فِي الْمَدِينَةِ وَالْخَبَائِثُ فِيهِ . وَفِي صَبَاحِ الْيَوْمِ الثَّانِي رَأَيْتُ
الْأَهْلِيَّ خَارِجًا مِنَ الْمَكَانِ ، فَعَرَفُونِي . أَخَذْتُ أَجْرِي طَلَبًا لِلشَّجَاةِ ،
فَتَبِعُونِي ، وَكَادُوا يُنْسَبِكُونَ بِي ، لَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ يَحْيَى بْنُ نَافِعٍ وَاقِفًا
أَمَامَ بَيْتِهِ . عَرَفْتُهُ وَطَلَبْتُ مِنْهُ أَنْ يُجِيرَنِي ، فَفَعَلَ وَالْحَقُّنِي زَوْجَتُهُ فِي
مَخْدَعِهَا . وَعِنْدَمَا دَخَلَ الْجُنُودُ الْبَيْتَ نَحْنًا عَنِّي ، وَجَرَهُمْ يَحْيَى ،
وَصَرَخَتْ زَوْجَتُهُ فِيهِمْ لِيُعَادِرُوا الْمَكَانَ . وَهَكَذَا أَلْقَدَنِي يَحْيَى مِنْ
مَوْتٍ مُحَقَّقٍ . »

اسْتَأْنَفَ عَبَّاسُ الْحَدِيثَ قَائِلًا : « فَضِيتُ فِي بَيْتِ يَحْيَى عِدَّةَ
أَشْهُرٍ . وَخِلَالِ الْخِيفَاتِي أَشْعَلَ الْجُنُودُ أَثَارَ فِي مَنْزِلِي ، فَاضْطَرُّرْتُ
نَحْدَمِي إِلَى مُغَادَرَتِهِ . اسْتَشْعَرْتُ الْخَطَرَ الْمُحْدِقَ بِي وَبِیَحْيَى ،
فَعَزَمْتُ عَلَى الْذَّهَابِ إِلَى بَغْدَادَ . وَقَدْ زُوْدَنِي يَحْيَى لِسَفَرِي بِمَلَابِسٍ

جَدِيدَةٍ وَزَادَ بَغِيْرَ وَخَوَادِمٍ . فَعَلَّ كُلُّ هَذَا مِنْ أَجْلِ وَلَا أُدْرِي
كَيْفَ أَرُدُّ لَهُ بَعْضَ الْجَمِيلِ !؟ وَالْآنَ ، هَلْ أَذْرَكْتُ لِمَاذَا أُحِبُّ
مَرُو ؟ »

بَعْدَ أَنْ انْتَهَى عَبَّاسٌ مِنْ سَرْدِ قِصَّتِهِ ، انْفَتَتْ إِلَى الرَّجُلِ وَسَأَلَتْ :
« قُلْ لِي ، لِمَاذَا سَجَنُوكَ ؟ »

فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّجِينُ : « لَمْ أَقْتَرِفْ مَا يُوجِبُ غَضَبَ الْخَلِيفَةِ . إِنْ
أَعْدَانِي فِي مَرُو ثَقُولُوا عَلَيَّ ، وَوَسَّوْا بِي لَدَى الْوَالِي ، فَصَدَّقَهُمْ ،
وَبَعَثَ بِي إِلَى الْخَلِيفَةِ . »

تَوَقَّفَ قَلِيلًا عَنِ الْكَلَامِ ثُمَّ سَأَلَ عَبَّاسًا : « يَا عَبَّاسُ ! أَلَا
تَعْرِفُنِي ؟ طَبَعًا سَيَكُونُ جَوَابُكَ بِالْقَفِيِّ ، وَخَاصَّةً أَنَّ الْعُمَرَ قَدْ تَقَدَّمَ
بِي ، وَتَغَيَّرَتْ مَلَامِحُ وَجْهِهِ خِلَالَ ثَلَاثِ وَعِشْرِينَ سَنَةً مُنْذُ آخِرِ لِقَائِهِ
لَنَا .. أَنَا يَحْيَى بْنُ نَافِعٍ . »

اسْتَوَلَى عَلَى عَبَّاسٍ الذَّهْوَلُ وَأَخَذَ يَتَفَرَّسُ فِي وَجْهِ مُحَدِّثِهِ ، ثُمَّ
قَالَ : « يَا إِلَهِي ! مَا الَّذِي أَسْمَعُهُ !؟ لَقَدْ أَلْقَدْتُ حَيَاتِي . لَقَدْ
نَسِيتُ وَجْهَكَ بِمُرُورِ السَّنِينَ . إِنَّكَ أَنْتَ يَحْيَى بْنُ نَافِعٍ بِعَيْنِهِ .
يَا صَدِيقِي الْعَجُوزُ ! يَجِبُ أَنْ أَجِدَ وَسِيلَةً لِمُسَاعَدَتِكَ . يَا يَحْيَى !
أَعِدْ نَفْسَكَ لِلْفِرَارِ ، وَسَيَتَوَلَّى بَعْضُ رِجَالِي مُرَافَقَتَكَ إِلَى خَارِجِ
بَغْدَادَ . »

قَائِلًا : « يَا مَوْلَايَ ! هَذِهِ قِصَّتِي مَعَ السَّحَّابِ ، وَلَكَّ أَنْ تُقَطِّعَ رَأْسِي
إِنْ شِئْتَ . وَلَكِنِّي لَا أُسْتَطِيعُ النَّهْضَ أَنْ آتِيكَ يَحْيَى بْنُ نَافِعٍ . لَقَدْ
أَتَقَدَّ حَيَاتِي مِنَ الْمَوْتِ فِي مَدِينَةِ مَرْوٍ ، وَالْوَاجِبُ يَدْعُونِي إِلَى
مُسَاعَدَتِهِ فِي بَغْدَادَ وَالسَّعْيُ إِلَى إِظْهَارِ بَرَاءَتِهِ . »

كَانَ الْخَلِيفَةُ الْمَمْلُوكُ قَدْ رَزَقَهُ اللَّهُ رِجَاحَةَ الْعَقْلِ وَحُبَّ الْعَدْلِ ؛
وَلِذَا طَلَّبَ مِنْ عَبَّاسٍ ، أَمِيرِ الشَّرْطَةِ ، أَنْ يَأْتِيَهُ يَحْيَى .

مَثَلُ يَحْيَى بَيْنَ يَدَيِ الْخَلِيفَةِ وَمُزْجِ أَمْرِهِ ، فَرَضِي الْخَلِيفَةُ عَنْهُ ،
وَمَنَحَهُ بَعْضًا مِنْ مَلَاسِيهِ النَّفِيسَةِ وَأَعَادَهُ إِلَى بَلَدِهِ مُعَزِّزًا مُكْرَّمًا .



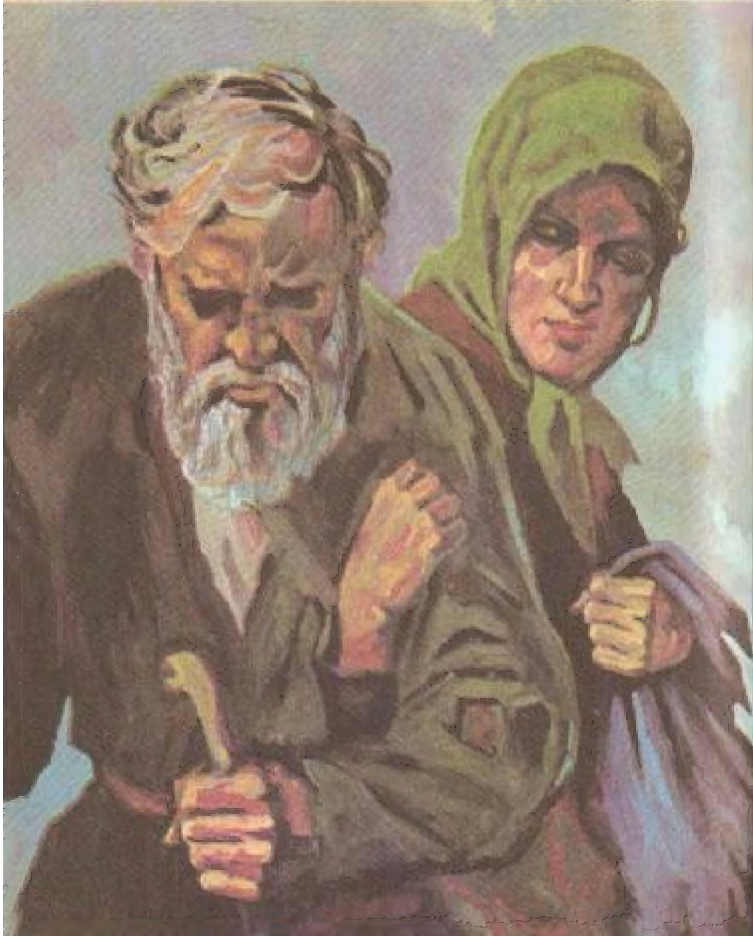
رَفَضَ يَحْيَى فِكْرَةَ الْفِرَارِ خَشْيَةً أَنْ يُؤَدِّيَ ذَلِكَ إِلَى أَنْ يَأْمُرَ الْخَلِيفَةُ
بِقَتْلِ عَبَّاسٍ . وَاتَّفَقَا أَخِيرًا عَلَى أَنْ يَبْقَى يَحْيَى فِي مَحْبَبَتِهِ ، وَيَذْهَبَ
عَبَّاسٌ إِلَى الْخَلِيفَةِ ، وَيَعْرِضَ عَلَيْهِ الْقِصَّةَ بِكَامِلِهَا .

فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ الْتَالِي تَوَجَّهَ عَبَّاسٌ وَخَذَهُ إِلَى قَصْرِ الْخَلِيفَةِ
الْمَمْلُوكِ . وَمَا إِنَّ رَأَاهُ بِدُونِ السَّحَّابِ حَتَّى اسْتَبَدَّ بِهِ الْغَضَبُ
وَصَاحَ : « لِمَ جِئْتَنِي بِدُونِ السَّحَّابِ ؟ »

تَقَدَّمَ عَبَّاسٌ مِنَ الْخَلِيفَةِ ، وَرَوَّى لَهُ الْقِصَّةَ كَامِلَةً ، ثُمَّ أَضَافَ

سِرُّ عِزَّةٍ

كَرَّتِ الْأَيَّامُ ، وَفَقِرَ حُزْنُهُ يَزْدَادُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ : نَهَلَتْ مَلَابِسُهُ
وَأَغْتَلَّتْ جَسْمَهُ وَتَحَفَّ .



تَقَعُ الْحَزِينَةُ فِي شِمَالِ سُوْرِيَا ، وَقَدْ عَاشَتْ فِيهَا حُزْنُهُ بَيْنَ بَشَرٍ .
وَكَانَ يُعْرِفُ عَنْهُ أَنَّهُ طَيِّبُ الْقَلْبِ ، كَرِيمُ النَّفْسِ ، سَحِيحُ الْيَدِ . مَا
قَصْدُهُ مُخْتَاجٌ إِلَّا أَجَابَ طَلْتَهُ ، حَتَّى وَلَوْ اسْتَلَفَ مِنَ الْآخَرِينَ .
وَلَمْ يَمُضِ طَوِيلٌ زَمَنٍ حَتَّى أَصْبَحَ خَالِي الْوِفَاضِ ، لَا يَمْلِكُ مِنَ
الْحَالِ شَيْئًا . وَلَمْ يَعُدْ أَحَدٌ يُقْرِضُهُ أَيْ مَبْلَغَ مَهْمَا كَانَ ضَعِيفًا .
أَبَتْ كِبَرِيَاؤُهُ وَغِرَّةُ نَفْسِهِ أَنْ يَطْلُبَ الْغَدْرَ مِنْ أَيْ إِنْسَانٍ كَانَ .
تَرَاكَمَتْ عَلَيْهِ الدُّيُونُ ، وَأَخَذَ بِخِطَاوِهِ ضَيْقُ ذَاتِ الْيَدِ حَتَّى إِنَّهُ لَمْ
يَقْدِرْ عَلَى شِرَاءِ مَا يَلْزَمُهُ مِنْ طَعَامٍ وَمَلَابِسٍ . ذَابَ كُلُّ يَوْمٍ عَلَى
الْذَّهَابِ إِلَى الْمَدِينَةِ لَعَلَّهُ يَحْصُلَ عَلَى مَا يَشْتَرِي بِهِ طَعَامًا يَسُدُّ بِهِ
الرَّمَقَ . وَلَكِنْ أَيْ الدَّهْرُ إِلَّا أَنْ يُثْقَلَ عَلَيْهِ ، وَيُذَيِّقَهُ مَرَارَةَ الْفَقْرِ .
لَجَأَ إِلَى بَيْعِ مَا فِي بَيْتِهِ حَتَّى كَادَ يَخْلُو مِنَ الْأَثَاثِ . وَفِي كُلِّ
مَرَّةٍ يَذْهَبُ فِيهَا إِلَى الْمَدِينَةِ ، كَانَ يَعُودُ وَقَلْبُهُ مُفْعَمٌ بِالْحُزَنِ .
حَاوَلَتْ زَوْجَتُهُ أَنْ تُخَفِّفَ عَنْهُ بَعْضَ أَهْزَانِهِ فَخَاطَبَتْهُ بِقَوْلِهَا :
« يَا زَوْجِي الْغَرِيزُ ! لَا تُكُنْ مَطِيئَةً لِلشُّعُورِ بِالشَّقَاءِ ، وَلَا فَرَسَةً لِلنَّعَمِ
وَالْحُزَنِ . يَجِبُ إِلَّا تَبَيَّنَ ، فَإِنَّهُ خَالِقُ الْكُلُوْبِ لَنْ يَتَسَاكَ ، وَمَا يَعُدُّ
الضُّعْفُ إِلَّا الْفَرَحَ . »

لَمَّا بَلَغَ قَرْنَهُ أَشَدَّهُ ، قَرَّرَ أَنْ يَحْبِسَ نَفْسَهُ فِي غُرْفَتِهِ ، وَقَالَ لِزَوْجَتِهِ : « اسْتَمْعِي إِلَيَّ يَا غَزِيَّتِي . سَأَحْبِسُ نَفْسِي فِي غُرْفَتِي وَلَنْ أَكَلِمَ أَحَدًا ، وَسَأَمُوتُ فِي الْبَيْتِ إِنْ أَنْ أَمُوتَ جُوعًا . »

تَسَرَّبتْ أَثَاءُ الْمَعَانَاةِ الَّتِي يَبِيعُهَا خُزَيْمَةُ ، وَاتَّشَرَّتْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَوْسَاطِ . سَمِعَ بِذَلِكَ عِكْرِمَةُ الْفَيَاضُ وَالِي الْجَزِيرَةِ ، فَاسْتَدْعَى بَعْضَ أَصْدِقَائِهِ وَسَأَلَهُمْ :

« مَا الَّذِي أَصَابَ خُزَيْمَةَ ؟ إِنْ لَمْ أَرَهُ مِنْ عِدَّةِ أَسابِغَ . » وَلَمَّا وَقَفَ عَلَى تَفَاصِيلِ مَا أَصَابَ خُزَيْمَةَ الثَّابِتِ الْحُزْنَ عَلَيْهِ ، وَأَخَذَ يُفَكِّرُ فِي وَسِيلَةِ لِقَائِهِ دُونَ عِلْمِ مَنْهُ .

غَيَّرَ عِكْرِمَةُ مَلَابِسَهُ ، بِحَيْثُ لَا يَنْبَغُ مَظْهَرُهُ عَلَى أَنَّهُ الْوَالِي ، ثُمَّ وَضَعَ الْكُثَامَ عَلَى وَجْهِهِ . وَفِي سَاعَةِ مَتَأَخَّرَةٍ مِنَ اللَّيْلِ امْتَنَطَى صَهْوَةً بِجَوَادِهِ ، وَحَمَلَ مَعَهُ كَيْسًا مِنَ التَّقْوِدِ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ بَيْتِ الْكَمَالِ . وَعِنْدَمَا بَلَغَ بَيْتَ خُزَيْمَةَ طَرَّقَ الْبَابَ بِرَفْقٍ . وَمَا إِنْ فَتَحَ خُزَيْمَةُ الْبَابَ حَتَّى أَلْقَى عِكْرِمَةَ بِكَيْسِ التَّقْوِدِ وَالطَّلُقِ بِجَوَادِهِ مُسْرِعًا . وَلَمْ يَسْمَعْ أَلْوَقْتُ لِيخُزَيْمَةَ أَنْ يَسْأَلَ الطَّارِقَ عَمَّنْ يَكُونُ ، كَمَا أَنَّ سَوَادَ اللَّيْلِ لَمْ يُمْكِنَهُ مِنْ رُؤْيِيهِ .

كَانَ خُزَيْمَةُ سَعِيدًا ، إِذْ انْفَرَجَتْ ضَائِقَتُهُ ؛ فَشَكَرَ اللَّهَ عَلَى نِعَمِهِ . وَفِي الصَّبَاحِ غَادَرَ الْبَيْتَ لِيُسَلِّدَ دُبُونَهُ ، وَلِيَشْتَرِيَ مَلَابِسَ جَدِيدَةً وَطَعَامًا .

أَخْفَى عِكْرِمَةَ مَا فَعَلَهُ ، وَلَمْ يَبْحَ بِهِ إِلَّا لِزَوْجَتِهِ بَعْدَ أَنْ قَطَعَتْ وَعَدًا بِعَدَمِ إِفْشَائِهِ .

بَعْدَ أَيَّامٍ ، غَادَرَ خُزَيْمَةُ الْجَزِيرَةَ ، وَفَضَلَ الْخَلِيفَةَ فِي دِمَشْقَ لِيَجِدَ لَهُ عَمَلًا . وَكَانَ الْخَلِيفَةُ آنَذَاكَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْحَمِيدِ . وَمَا إِنْ دَخَلَ عَلَيْهِ حَتَّى اشْتَرَحَ صَدْرَهُ لِزُيُوتِهِ شَخْصٍ عَظِيمٍ كَخُزَيْمَةَ ، ثُمَّ خَاطَبَهُ قَائِلًا :

« يَا خُزَيْمَةُ ! إِنَّكَ لَمْ تَزُرْ دِمَشْقَ مُنْذُ عَهْدٍ طَوِيلٍ . هَلْ أَقَعَدَكَ الْمَرَضُ عَنْ ذَلِكَ ؟ »

حَدَّثَ خُزَيْمَةُ الْخَلِيفَةَ عَمَّا قَاسَاهُ مِنْ مُتَاعِبٍ ، وَنَوَّهَ بِقِصَّةِ الرَّجُلِ الْغَرِيبِ الَّذِي أَغَاتَهُ دُونَ أَنْ يَكْشِفَ خُزَيْمَةَ هَوِيَّتَهُ ، أَوْ يُعَيِّرَ مَلَامَتَهُ .

تَعَجَّبَ الْخَلِيفَةُ وَسَأَلَهُ : « كَيْفَ حَدَّثَ هَذَا ؟ أَلَيْسَ عِكْرِمَةُ بِوَالِي الْجَزِيرَةِ ؟ أَلَمْ يَكُنْ يَتَعَلَّمُ بِمُعَانَاةِكَ ؟ لِمَ لَمْ يُبَادِرْ بِتَقْدِيمِ الْعَوْنِ لَكَ ، إِنْ كَانَ قَدْ عَلِمَ بِحَالِكَ ؟ حَقًّا إِنَّهُ لَيْسَ بِالْوَالِي الصَّالِحِ . »

أَمَرَ الْخَلِيفَةُ كَاتِبَ أَسْرَارِهِ أَنْ يُخَرَّرَ رِسَالَتَيْنِ ، أُولَاهُمَا تَتَعَلَّقُ بِعَزْلِ عِكْرِمَةَ ، وَتَتَعَلَّقُ الثَّانِيَةُ بِتُعْيِينِ خُزَيْمَةَ وَالْيَا بَدَلًا مِنْهُ .

عَادَ خُزَيْمَةُ إِلَى الْجَزِيرَةِ . وَلَمَّا ذَهَبَ إِلَى بَيْتِ الْكَمَالِ ، وَقَعَهُ عِكْرِمَةُ ، اِكْتَشَفَ وَجُودَ نَفْسِ فِي الْكَمَالِ . سَأَلَ عِكْرِمَةَ عَنْ ذَلِكَ ،

ولكن عكرمة لم تجبه عن سؤاله ، بل قال له :
« لا أستطيع بأي حال من الأحوال أن أقول لك شيئاً عن النُقود
المفقودة . »

عندها أمر خزيمة بإيداعه السجن . وقد قضى فيه زحاً طويلاً
من الزمن ، فاعتل جسمه وشاؤف على الموت ، ومع ذلك لم ينج
سر الخفاء النُقود .

راع زوجة عكرمة سوء حالة زوجها الصحية ، فقررت — مكرهه —
أن تقطع وعدها لزوجها بعدم التوج بالسّر الدفين . غادرت بيتها
وقصّدت لخزيمة ابن بشر ، وإلى الجزيرة الجديد ، وباحت له بسر
النُقود المفقودة من بيت المال .

استاء خزيمة من نسيه لأنه لم يذك بالخدس سبب فقدان
النُقود ، فالمبلغ الذي كان في الكيس الذي تلقاه يساوي المبلغ
الناقص . وشعر بالجزى لموقعه من صديقه الصدوق ، ذلك
الغريب المهمل الذي جاءه ليلاً ، وألفه من مخته ، والذي أصبح
في السجن .

نهض خزيمة ليومه ، وقصد السجن ، وأطلق سراح عكرمة ،
وأصطحبه معه إلى القصر حيث قدّم له العلايس الفاجرة ، ثم ذهب
معا إلى بيت عكرمة .



اعتاط عكرمة عندما علم أن زوجته قد نقصت وعدها الذي
قطعت ، ولكن خزيمة رجاه أن يصفح عنها ، لأنها ما قصّدت إلا
إنقاذ من الموت في السجن .

لم يمض وقت طويل حتى ذهب خزيمة إلى دمشق . وفي قصر
الخليفة روى القصة كاملة . سر الخليفة أي سرور بما فعله
عكرمة ، وكافاه على ذلك بتعيينه والياً على ثلاث ولايات وليس على
واحدة فقط .

مَعْرَكَةُ الْيَرْمُوكِ

خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ مِنْ أَعْظَمِ قَادَةِ الْعَرَبِ ، وَأَبْرَزِ رِجَالِهِمْ ، بِسَبَبِ مَا كَانَ يَتَمَيَّزُ بِهِ مِنْ حُنُوكَةٍ عَسْكَرِيَّةٍ ، وَإِخْلَاصٍ فِي الْعَمَلِ ، وَشَجَاعَةٍ فَائِقَةٍ ، وَثَقَانٍ فِي نَشْرِ الْإِسْلَامِ وَرَفْعِ لَوَائِهِ . فَلَقَدْ قَادَ جُيُوشَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ نَصَرٍ إِلَى نَصَرٍ ، وَهَزَمَ جُيُوشَ الْأَكَاكِيرَةِ فِي جَنُوبِ الْعِرَاقِ وَالْقَبَاصِيرَةِ فِي بِلَادِ الشَّامِ .

تَوَلَّى أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ أَوَّلَ خِلَافَةٍ فِي الْإِسْلَامِ ، بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) . وَفِي حَيَاةِ النَّبِيِّ دَانَتْ الْقَبَائِلُ الْعَرَبِيَّةُ فِي شِيْبَةِ الْجَزِيرَةِ لِلْإِسْلَامِ حُبًّا لَهُ وَلِإِذَا جَاءَ بِهِ مِنْ تَعَالِيمِ سَمَاقِيَّةٍ .

وَمَا إِنْ انْتَقَلَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ إِلَى جَوَارِ رَبِّهِ ، حَتَّى ارْتَدَّتْ بَعْضُ الْقَبَائِلِ عَنِ الْإِسْلَامِ ، وَخَرَجَتْ عَلَى أَبِي بَكْرٍ لِيَتَوَدَّ إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ .

كَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعَزَّ أَصْحَابِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَأَقْرَبُهُمْ إِلَى قَلْبِهِ . وَقَدْ اسْتَنْهَزَ بِالْحِكْمَةِ ، وَسَدَادِ الرَّأْيِ ، وَالرَّافَةِ ، وَالنَّوَاضِعِ ، وَلَمْ يَتَوَانَ عَنْ مُحَارَبَةِ أَغْدَاءِ الْإِسْلَامِ . بَعَثَ بِالْجُيُوشِ

لِقِتَالِ الْمُرْتَدِّينَ ، وَانْتَصَرَ عَلَيْهِمْ . كَمَا سَيَّرَ جُيُوشًا أُخْرَى إِلَى بِلَادٍ خَارِجَ شِيْبَةِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَكَانَ يَقْطُنُهَا عَرَبٌ كَثِيرُونَ تَحْتَ حُكْمِ مَنْ رَفَضُوا الدُّخُولَ فِي الْإِسْلَامِ . وَقَعَ اخْتِيَارُ الْخَلِيفَةِ أَبِي بَكْرٍ عَلَى خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ لِيَقُودَ الْجَيْشَ لِقِتَالِ الْفُرْسِ فِي الْعِرَاقِ أَوَّلًا ثُمَّ الْبِيزَنْطِيِّينَ فِي سُورِيَا نَاقِيًا .

سَارَ خَالِدٌ عَلَى رَأْسِ جَيْشِهِ شَمَالًا ، وَبَدَأَ يَفْتَحُ الْمُنْدَنَ ، الْوَاحِدَةَ بَعْدَ الْأُخْرَى . وَقَدْ سَمَّاهُ الْإِسْتِيلَاءَ عَلَى الْجَبَرَةِ جَنُوبِ الْعِرَاقِ وَطَرْدَ الْفُرْسَ مِنْهَا . وَبَعْدَهَا سَارَ بِجَيْشِهِ إِلَى بِلَادِ الشَّامِ ، وَعَسَكَرَ قَرِيبًا مِنْ نَهْرِ الْيَرْمُوكِ . هُنَاكَ انْضَمَّتْ إِلَيْهِ جُيُوشُ عَرَبِيَّةٍ أُخْرَى تَحْتَ قِيَادَتِهِ . أَمَّا الْبِيزَنْطِيُّونَ فِي سُورِيَا فَقَدْ حَشَدُوا جَيْشًا قَوَامُهُ ثَلَاثُ مِائَةِ أَلْفٍ خُنْدِيٍّ ، وَاتَّخَذُوا لَهُمْ مَعَسَكًا عَلَى إِحْدَى طِفْئِي نَهْرِ الْيَرْمُوكِ ، قِبَالَةَ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ . اخْتَدَّ الْجَيْشَانِ يَسْتَعِدَّانِ لِحُوضِ الْمَعْرَكَةِ الْفَاصِلَةِ .

جَمَعَ خَالِدٌ قَادَةَ الْفَصَائِلِ لِيُضَعَّ حُطَّةً خَرِيبَةً ، بَعْدَ أَنْ حَشَدَ الْبِيزَنْطِيُّونَ جَيْشًا تُعَدِّدُهُ ثَلَاثَةُ أَسْعَافِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ بَزِيدٍ .

مَسِيحُ حُضُودِ الْمُسْلِمِينَ الْمَعْرَكَةَ يَغْمُرُ قُلُوبَهُمْ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَيُؤْمِنُونَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ كَسَمَ مِنْ بَقَّةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ وَفَّةً كَثِيرَةً يَا ذَاكَ اللَّهُ ﴾ (صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ) . كَمَا أَنَّ شَجَاعَتَهُمْ وَطَلَبَ



الاستيلاء في سبيل الله سيُرحل كما كُفِّتُهُمْ .

في تلك الليلة وصل رسول من عند الخليفة عمر بن الخطاب يحمل رسالة نعي أبا بكر . وفي الرسالة أمر من عمر بن الخطاب بعزل خالد عن قيادة الجيش ، وتعيين أبي عبيدة بن الجراح مكانه .

أصبح أبو عبيدة في خيرة من أمته . ساءل نفسه : « ما عساني أن أفعل ؟ » قد يئس ألينا غضب خالد . اليس من الحكمة أن أطلبه

على الخبر بعد انتهاء المعركة ؟ ما أفضل شيء يمكن أن أفعله ، وتكون فيه مصلحة المسلمين والعرب ؟
فكر في الموضوع ملياً ، وأخيراً توصل إلى قرار بعدم إفشاء الخبر لأي كان .

أشربت الشمس وندأت معركة اليرموك الكبرى . إنها من أغنف المعارك في تاريخ العرب ! استمرت من الصباح حتى المساء ، وقد امتلأت أجوافها بصيحات الجنود وألأاب الجرحى . وكانت سحب الغبار تغطي سماء المعركة . كان على الجندي



الْعَرَبِيُّ أَنْ يُقَاتِلَ ثَلَاثَةً أَوْ أَرْبَعَةً مِنْ خِيَشِ الْأَعْدَاءِ ، وَذَلِكَ لِتَفَوُّقِهِمُ
الْعَدَدِيَّ ، إِذْ كَانُوا بِنِسْبَةِ ثَلَاثَةٍ أَوْ أَرْبَعَةٍ إِلَى وَاحِدٍ . وَكَانَ خَالِدٌ دَائِمَ
الْحَرَكَةِ ، يَنْتَقِلُ بَيْنَ صُفُوفِ جُنْدِهِ وَيُثَبِّتُ عَلَى بَسَالَتِهِمْ . وَبِهَذَا يَثُ
فِي نَفْسِهِمُ الْحِمَاسُ ؛ فَيَذِلُّوا الْجُهْدَ الْمُضَاعَفَةَ فِي قِتَالِهِمْ .

وَلَمْ تَكُنْ ضَرَاوَةُ الْمَعْرَكَةِ تُسَمِّحُ لِلْجُنُودِ بِتَنَاوُلِ الطَّعَامِ أَوْ
الشَّرَابِ . لَقَدْ اسْتَمَرَّ الْجُنُودُ الْعَرَبُ فِي قِتَالِهِمْ ، وَكَانُوا أَشْبَهَ بِالْمُحَرِّقِ
الْكَاسِرَةِ ، وَلَمْ يُصِيبْهُمْ الْكَفَلُ ، وَلَمْ يَسْتَوِلْ عَلَيْهِمُ الْحَلَلُ . وَمَا إِنْ
خَلَّ الظُّلَامُ حَتَّى الْخَلَّتْ نَتِيجَةُ الْمَعْرَكَةِ بِالنِّصَارِ جَيْشَ خَالِدِ النَّصَارَا
عَظِيمًا ، كَانَ مِنْ نَتِيجَتِهِ خُرُوجُ الْبِزْطَينِيِّينَ مِنْ سُورِيَا إِلَى غَيْرِ
رَحْمَةٍ .

فِي الْيَوْمِ الثَّالِي لِلْمَعْرَكَةِ كَانَ عَلَى أَبِي عُبَيْدَةَ أَنْ يَنْقَلِ إِلَى خَالِدٍ مَا
وَصَّلَهُ مِنَ الْخَلِيفَةِ عُمَرَ .

لَا شَكَّ أَنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ ، بَعْدَ النَّصْرِ الَّذِي أَحْرَزَهُ فِي مَعْرَكَةِ
الْبَرَمُوكِ ، أَزْدَادَ شُهْرَةٍ كَقَائِدٍ . لَقَدْ كَانَ أَشْجَعَ الْمُحَارِبِينَ وَأَكْثَرَهُمْ
حِكْمَةً . كَانَ السُّؤَالُ الَّذِي يَتَرَدَّدُ : مَا الَّذِي فَعَلَهُ بَعْدَ أَنْ عَلِمَ مِنْ
أَبِي عُبَيْدَةَ بِأَمْرِ عَزْلِهِ ؟

لَمْ يَفْعَلْ شَيْئًا الْبَتَّةَ ، بَلْ تَقَبَّلَ الْأَمْرَ بِصَدْرٍ رَحْبٍ ، دُونَ أَنْ يَبْدِيَ

تَذَمُّرًا أَوْ اسْتِجَاءً ، وَقَالَ لِأَبِي عُبَيْدَةَ : « رَجَمَكَ اللَّهُ ! مَا أُرَدِّثُ إِلَى
مَا صَنَعْتَ ؟ كُنْتُمْ تَعْرِفُونَ أَنَّ أَحَبَّ أَنْ أَعْلَمَهُ قَبْلَ الْيَوْمِ . »

لَقَدْ خَاضَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ عِدَّةَ مَعَارِكٍ ، وَفَتَحَ سُورِيَا وَفَسَمَا مِنْ
أَرْمِينِيَا . وَعِنْدَمَا وَافَقَهُ الْمُنِيَّةُ ، دُفِنَ فِي الْجَامِعِ الْكَبِيرِ بِمَدِينَةِ
حَمَصٍ .

وَحَرَّيْ بِمَنْ يَزُورُ الْمَدِينَةَ أَنْ يَقْصِدَ ضَرْيَحَ خَالِدٍ وَيَقْرَأَ عَلَى رُوحِهِ
الْمَغَانِيحَةَ ؛ عَلَى رُوحِ قَائِدِ عَرَبِيٍّ عَظِيمٍ ، تَذَكُّرُهُ بِكُلِّ اعْتِبَارٍ وَفَخْرٍ .

امراة شجاعة

كان خالد بن الوليد ، القائد العربي الشهير ، يقود جيشا صغيرا لمحاربة أعداء الإسلام في شمال شبه الجزيرة العربية . وقد أحرز هذا الجيش عدة انتصارات ، وكان من بين المقاتلين ومن الشجعان المتعددين ضيرار بن الأزور ، وهو ممن أثلوا البلاء

الحسن في سبيل نصرة الإسلام والمسلمين . وفي إحدى المعارك الضارية شق ضيرار طريقه وسط صفوف الأعداء ، فأسروه .

وكتيرا ما كانت النساء العربيات يرافقن الجيوش العربية في غزواتها ، ليؤمنن بطلبهن الطعام ، ورتق الملابس ، والسهر على راحة الممرضى والجرحى .



وَكَانَ لِضِرَارٍ أُخِثَ اسْمُهَا حَوْلَةٌ رَافَقَتْ الْجَيْشَ . وَعِنْدَمَا بَلَغَهَا بَأْسُ اسْرِ أَحِبِّهَا ، غَضِبَتْ غَضَبًا شَدِيدًا . ارْتَدَّتْ لِثَابِ جُنْدِي عَرَبِيٍّ ، وَغَطَّتْ أَسْفَلَ وَجْهِهَا بِلِثَامٍ . ثُمَّ رَكِبَتْ جَوَادًا ، وَهَاجَمَتْ الْعَدُوَّ بِمُفْرَدِهَا ، تُرِيدُ أَنْ تُنْقِذَ أَحَاها مِنَ الْإِسْرِ ، حَتَّى وَلَوْ ضَحَّتْ بِخِيَانِهَا .

عِنْدَمَا رَأَى الْجُنُودُ الْعَرَبُ أَنَّ فَارِسًا خَرَجَ مِنْ بَيْنِ صُفُوفِهِمْ ، يُرِيدُ أَنْ يُحَارِبَ الْأَعْدَاءَ بِمُفْرَدِهِ ، أُعْجِبُوا بِشَجَاعَتِهِ وَتَبَعُوهُ إِلَى سَاحَةِ الْقِتَالِ . وَاسْتَمَرَّتِ الْمَعْرَكَةُ أَيَّامًا طَوِيلَةً ، وَانْتَهَتْ بِالنِّصَارِ الْعَرَبِ وَهَزِيمَةِ الرُّومِ .

أَخَذَتْ حَوْلَةٌ تَبَحُّثَ عَنْ أَحِبِّهَا لِفَكِّ إِسَارِهِ ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَعْمُرْ لَهُ عَلَى أَثَرٍ ، فَقَدْ كَانَ ، آنَ ذَلِكَ ، فِي طَرِيقِهِ إِلَى دِمَشْقَ مَعَ ثَلَاثَةِ مِنْ جُنُودِ الْأَعْدَاءِ .

كَانَ الْفَازَةُ الْعَرَبُ وَجُنُودُهُمْ يَرْغَبُونَ فِي اكْتِشَافِ هَوِيَّةِ ذَلِكَ الْفَارِسِ الْعَرَبِيِّ الْغَامِضِ ، الَّذِي لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهُ أَحَدٌ ، وَلَا حَتَّى الْفَائِزَ حَالِدَ بْنِ الْوَلِيدِ . عَلَى أَنَّهُمْ عِنْدَمَا سَاءُوا بِحَوْلَةٍ بِنْتُ الْأَزْوَارِ أَمَامَ حَالِدٍ ، وَغَرَفُوهَا ، أَكْثَرُوا فِيهَا شَجَاعَتَهَا ، وَلَوَّلَوْهَا كَثِيرَ احْتِرَامِهِمْ ، فَقَدْ فَعَلَتْ مَا لَمْ يَفْعَلْهُ الرَّحَالُ .

الْثَابِ حَوْلَةَ الْخَزْنِ عَلَى أَحِبِّهَا ، فَلَمْ تَعْرِفْ لِلطَّعَامِ مَذَاقًا ، وَلَا لِلنُّومِ سَبِيلًا . وَطَلَبَتْ مِنْ حَالِدٍ وَفَادَتِهِ أَنْ يَتَعَوَّاهَا بِمَنْ يَقْتَفُونَ أَثَرِ الْعَدُوِّ لِإِنْقَادِ أَحِبِّهَا مِنَ الْإِسْرِ .

لَبَّى حَالِدٌ طَلَبَهَا ، وَأَرْسَلَ مَعَهَا بَعْضَ الْجُنُودِ لِلْحَاقِ بِجُنُودِ الْأَعْدَاءِ . قَطَعَتْ حَوْلَةٌ ، وَمِنْ مَعَهَا مِنَ الْجُنُودِ الْعَرَبِ ، اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ فِي سَبْرِهِمْ ، حَتَّى غَثَرُوا عَلَى ضِرَارٍ وَسَطَ ثَلَاثَةِ مِنْ جُنُودِ الرُّومِ .

اشْتَبَكَ الطَّرْفَانِ فِي مَعْرَكَةٍ ضَارِبَةٍ انْقَصَرَ فِيهَا الْعَرَبُ ، وَأُقْتَدُوا ضِرَارًا مِنَ الْإِسْرِ ، وَعَادُوا بِهِ فَرَحِينَ . أَمَّا حَوْلَةٌ فَقَدْ تَلَقَّتْ مِنْ حَالِدٍ وَفَادَتِهِ أَعْظَمَ مَظَاهِيرِ الْخِفَاوَةِ وَالْكَرِيمِ .

وَتَحْلِيلًا لِهَذِهِ الْبَطُولَةِ الْفَرَاغَةِ الَّتِي أَبْدَتْهَا حَوْلَةٌ بِنْتُ الْأَزْوَارِ ، سَمَّيْتُ الْكَثِيرُ مِنَ الْمَدَارِسِ بِاسْمِهَا .

الخليفة الرؤوف

عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ مِنْ أَكْثَرِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ . تَوَلَّى الْخِلَافَةَ بَعْدَ وَفَاةِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ، وَغَمِلَ بِمَا جَاءَ بِهِ الْكُتُبُ مُحَمَّدٌ فِي رِسَالَتِهِ ، وَأَسْهَمَ فِي نَشْرِ كَلِمَةِ الْإِسْلَامِ فِي الْعَدِيدِ مِنَ الْبُلْدَانِ . وَفِي عَهْدِهِ أَسْعَتْ رُفْعَةُ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فَشَمَلَتْ أَفْطَارًا كَثِيرَةً خَارِجَ شِبْهِ الْحَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ .

كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ خَرِصًا عَلَى تَوْفِيرِ الْقَوِي لِجَمِيعِ أَفْرَادِ الشَّعْبِ ، وَعَلَى عَزْمِ خُرُوجِ أَحَدٍ عَلَى أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، كَمَا انْتَشَرَ الْعَدْلُ أَثْنَاءَ حُكْمِهِ . وَكَثِيرًا مَا كَانَ يَخْرُجُ لَيْلًا مُتَكَرِّرًا فِي بَابِ بَنِي بَنِي ، وَيَسِيرُ فِي شَوَارِعِ الْمَدِينَةِ ، وَيَتَخَلَّطُ بِأَهْلِهَا لِيَسْمَعَ مَا يَقُولُونَهُ عَنْهُ وَعَنْ حُكْمِهِ .

ذَاكَ لَيْلَةً مَرَّ عُمَرُ بِبَيْتٍ فِيهِ أَوْفَالٌ يَتِيمُونَ . وَمَا إِنَّ دَخَلَ الْبَيْتَ حَتَّى شَاهَدَ بَضْعَةَ أَوْفَالٍ يَجْلِسُونَ فِي رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ الْحُجْرَةِ ، عَلَى جِوْنٍ يَقِفُ أَمَامَهُمْ أَمَامٌ مُوقِفٌ عَلَيْهِ قَدَرٌ يَتَصَاعَدُ مِنْهَا الْبَخَارُ . وَكَانَتْ تُخْرِكُ مَا فِي الْقَدْرِ ، وَتَسَالُ أَوْفَالُهَا الْجِياعَ الْقَرِيبَ حَتَّى تَنْتَهِي مِنْ إِعْدَادِ الطَّعَامِ لَهُمْ .

حَازَ عُمَرُ وَتَسَاءَلَ إِنْ كَانَ ثَمَّةَ خَطَأٍ وَرَاءَ مَا يَرَى وَمَا يَسْمَعُ فَتَوَخَّاهُ إِلَى الْأُمِّ قَائِلًا :

« السَّلَامُ عَلَيْكَ ، أَيُّهَا الْعَجُوزُ الطَّيِّبَةُ . لِمَ يَبْكِي أَوْفَالُكَ ، مَعَ أَنِّي أَرَى الطَّعَامَ سَيَتَضَخُّ بَعْدَ قَلِيلٍ ؟ أَلَا يَسْتَطِيعُونَ الْإِنْتِظَارَ ؟ »

نَظَرَتْ إِلَيْهِ الْمَرْأَةُ بِعَيْنَيْنِ تُفَصِّحَانِ عَنِ الْأَلَمِ وَالْغَضَبِ ، وَأَحَابَتُهُ عَنْ أَسْئَلَتِهِ قَائِلَةً : « إِنَّ الْخَلِيفَةَ لَا يَتَفَكَّرُ قَطُّ فِي شَيْءٍ بَدَلَ فِي نَفْسِهِ . إِنْ هَؤُلَاءِ الْأَوْفَالُ الْفُقَرَاءُ لَا وَالِدَ لَهُمْ ، وَلَا طَعَامَ يَسُدُّ رَمَقَهُمْ . هَلْ لَمْ أَفْتَرَسْتُ مِنْهُ وَهَمَسْتُ فِي أُذُنِهِ : « تَعَالِ وَالْفَرَّ مَا فِي الْقَدْرِ » . »

وَأَذْهَلَهُ أَنْ يَرَى بَعْضَ الْخَصَمِ فِي الْمَاءِ الَّذِي يُغْلَى ، وَلَا شَيْءَ سِوَاهُ . لَمْ يَكُنْ لَدَى الْمَرْأَةِ طَعَامٌ تُقَدِّمُهُ لِأَوْفَالِهَا الْجِياعِ . كَانَتْ



تفصيد بخريركها الطعام إسكانهم إلى أن يأخذ منهم الثعب مأخذه
فيأثموا .

عندئذ قال لها الخليفة : « هل لك أن تتظيرني ؟ سأعود إليك
في الحال . »

تركها وعاد إلى بيت الذخيرة بسرعة ، وأحضرت كيساً مملوئاً
بالذهب وجرّة سمّ . وحمل الكيس على ظهره ، وأمسك الجرّة
بيده ، وقصد بيت المرأة الفقيرة . وهناك أعد الطعام وأطعم الصبية
بنفسه ، وقال للمرأة وهو يهيم بالإلصاف : « يا خالة ، أنا من
أقارب أمير المؤمنين عمر ، وسأذكر له حالك . فأيني غداً في
دار الخلافة تجديني هناك . فأرحني خيراً . »

ذهبت المرأة فاستصفاها عمر ، وجعل لها ولأولادها راتباً
شهرياً .

الخليفة المأمون وعمه إبراهيم

كان الخليفة المأمون من أعظم خلفاء المسلمين ، ففي عهده
انضمت رقعة الدولة الإسلامية ، وشيدت المدارس على مختلف
أنواعها . كما عرف بأنه عادل في حكمه ، زووف بشعبه ، كريم
في خلقه .

أثناء حكمه حاول أخذ أعمامه ، إبراهيم بن المهدي ، أن
يخلعه ويثبتوا عرش الخلافة مكانه مستعينين بنصر من الناس ، أغلبهم
من الفرس . قام على رأسي أنصاره بقتال جيش المأمون في
خراسان ، فأرسل المأمون المزيد من الجنود لإخماد الفتن ، وكان
النصر خليف جيش الخليفة . أما إبراهيم فقد اضطر إلى الفرار لينجو
بنفسه .

بعث المأمون بمن يتعقب إبراهيم ويلقي القبض عليه . وأعلن :
« من يجني إبراهيم حياً أو ميتاً أكافئه . » وكان إبراهيم محققاً في
بغداد ، وسمع بما قاله المأمون . وكان الكثيرون من أهل بغداد
يعرفونه ويميزونه عن غيره ، وكان يعتقدونهم أن يرشدوا عن مكان
إخباؤه . وكان من عادته أن يخفي وجهه إذا خرج من السجن
ليشراء ما يلزمه من طعام .

قِيلَتِ الْمَرْأَةُ إِجَارَتُهُ فَأَدْخَلَتْهُ بَيْتَهَا وَأَوْتَتْهُ فِي إِحْدَى الْحُجُرَاتِ .



ذَاتَ يَوْمٍ ، وَكَانَ الْجَوُّ حَارًّا ، خَرَجَ إِبْرَاهِيمُ يَسِيرُ فِي أُحْدِ الْأَرْقَةِ . وَعَلَى بَابِ أُحْدِ الْبُيُوتِ رَأَى عَبْدًا أَسْوَدَ . تَقَدَّمَ مِنْهُ وَسَأَلَهُ بَعْضَ الطَّعَامِ ، وَرَجَاهُ أَنْ يُخْفِيَهُ فِي بَيْتِهِ حَتَّى خُلُودِ الظَّلَامِ . عَرَفَ الْعَبْدُ مُحَدِّثَهُ ، وَلَكِنَّهُ رَحَّبَ بِهِ بِحَرَارَةٍ وَقَدَّمَ لَهُ الطَّعَامَ وَالْفَرَّاشَ . وَعِنْدَمَا أَرَادَ إِبْرَاهِيمُ أَنْ يُغَادِرَ الْبَيْتَ عَرَضَ عَلَى مُضِيْفِهِ بَعْضَ التَّقْوِدِ ، وَلَكِنَّ الْعَبْدَ رَفَضَ قَوْلَهَا ، وَقَالَ لَهُ : « لَقَدْ كُنْتُ ، يَا سَيِّدِي ، ضَيْفًا عَلَيْكَ . مَا أَنَا إِلَّا عَبْدٌ ، وَلَكِنِّي لَا أَقْبَلُ التَّقْوِدَ مِنْ ضَيْفٍ . لَوْ كُنْتُ ضَيْفًا عَلَى رَجُلٍ حُرٍّ ، هَلْ كُنْتُ تُقَدِّمُ لَهُ مَا لَا ؟ أَرْجُو أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَكُونَ فِي عَزْلِكَ فِيمَا أَنْتَ ذَاهِبٌ إِلَيْهِ . »

بَكَى إِبْرَاهِيمُ لَدَى سَمَاعِهِ مَا قَالَهُ مُضِيْفُهُ ، ثُمَّ شَكَرَهُ وَانْصَرَفَ إِلَى حَالِ سَبِيلِهِ مُرْتَدِّيًا بَابَ امْرَأَةٍ ، وَهَرَبَ مِنْ بَغْدَادَ . وَعَلَى مَقَرَّةٍ مِنْ جَسْرِ كَانَ يَقِفُ أَحَدُ الْفُرْسَانِ الْجُنُودِ الَّذِي عَرَفَ إِبْرَاهِيمَ فِي الْحَالِ . تَذَكَّرَ الْجُنْدِيُّ مَكَاثِفَةَ الْخَلِيفَةِ ، فَحَاوَلَ الْإِمْسَاكَ بِهِ ، وَلَكِنَّ إِبْرَاهِيمَ دَفَعَ بِهِ إِلَى الشَّهْرِ ، وَأَسْرَعَ فِي سِتْرِهِ ، سَالِكًا طَرِيقًا أُخْرَى .

وَفِيمَا هُوَ سَائِرُ رَأَى امْرَأَةً عَلَى بَابِ بَيْتِهَا ، فَاسْتَجَارَ بِهَا قَائِلًا : « هَلْ لَكَ أَنْ تُسَاعِدِيَنِي ؟ إِنَّ جُنُودَ الْخَلِيفَةِ يَتَحَنُّونَ عَلَيَّ ، وَلَوْ قَبَضُوا عَلَيَّ لَقَتَلُونِي . »

لَمْ يَمُضِ وَقْتُ طَوِيلٍ حَتَّى حَضَرَ زَوْجُهَا ، وَفِي جَيْبَيْهِ جُرْحٌ عَمِيقٌ ، وَمَلَابِسُهُ مُبْتَئِلَةٌ . إِنَّهُ الْجُنْدِيُّ نَفْسُهُ الَّذِي كَانَ فِي حِرَاسَةِ الْجِسْرِ . وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ قَدْ قَصَّ عَلَى الْمَرْأَةِ حِكَايَتَهُ مَعَ ذَلِكَ الْجُنْدِيِّ ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ عِنْدَ وَعْدِهَا : أَبْقَتْهُ فِي بَيْتِهَا دُونَ أَنْ يَرَاهُ زَوْجُهَا . وَأَخِيرًا رَأَى إِبْرَاهِيمُ أَنَّ يُغَادِرَ الْبَيْتَ فِي مَلَابِسِ امْرَأَةٍ .

لَمْ يَذَرِ إِبْرَاهِيمُ أَنْ يَذْهَبَ ، وَأَيَّ طَرِيقٍ يَسْتَلُكُ ، وَلَكِنَّهُ تَذَكَّرَ إِخْدَى الْعَجَائِزِ مِنْ خَادِمَاتِهِ . فَصَنَدَ بَيْتَهَا فَاسْتَقْبَلَتْهُ بِكُلِّ تَرْحِيبٍ ، وَقَالَتْ لَهُ : « ابْقْ هُنَا ، فَإِنِّي خَارِجَةٌ لِشِرَاءِ بَعْضِ الطَّعَامِ . »

أَسْرَعَتْ الْخَادِمَةُ إِلَى جُنُودِ الْخَلِيفَةِ وَالْبَائِثِينَ بِوُجُودِ إِبْرَاهِيمَ فِي بَيْتِهَا . حَضَرَ الْجُنُودُ وَأَعَادُوا إِبْرَاهِيمَ إِلَى بَغْدَادَ ، وَقَادُوهُ إِلَى الْخَلِيفَةِ . وَمَا إِنْ مَثَلَ بَيْنَ يَدَيِ الْخَلِيفَةِ ، حَتَّى أَخَذَ فِي الْبُكَاءِ ، ثُمَّ عَرَضَ عَلَى مُسَامَعِهِ مَا قَامَ بِهِ مِنْ مُجَازِفَاتٍ ، وَتَوَسَّلَ إِلَيْهِ أَنْ يَصْفَحَ عَنْهُ . وَلَكِنَّ رِجَالَ الْخَلِيفَةِ طَالَبُوا بِقَتْلِهِ حَزَاءَ تَأْمَرِهِ عَلَى قَتْلِ الْخَلِيفَةِ ؛ غَيْرَ أَنْ أَحَدَهُمْ قَالَ لِلْخَلِيفَةِ :

« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! يَسْتَطِيعُ الْمَرْءُ أَنْ يَقْتُلَ غَدُوَّهُ ، وَلَكِنَّ الرَّجُلَ الْعَظِيمَ فَقَطْ هُوَ الَّذِي يَسْتَطِيعُ الصَّفْحَ وَنِسْيَانِ الْإِسَاءَةِ . فَالْعَفْوُ عِنْدَ الْمُقَدَّرَةِ . »

فَكَرَّ الْخَلِيفَةُ مَلِيًّا ، ثُمَّ خَاطَبَ إِبْرَاهِيمَ قَائِلًا :

« سَأَعْفُو عَنْكَ بِاعْمَلِي ، لِأَنِّي أَرَى أَنَّكَ نَادِمٌ حَقًّا عَلَى مَا فَعَلْتَ . إِذْهَبْ إِلَى زَوْجَتِكَ وَأَوْلَادِكَ ، وَلَكِنْ تَذَكَّرْ أَنَّ مِنَ السَّهْلِ عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يُعَاقِبَ غَيْرَهُ ، وَلَكِنْ الْأَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ الْصَّفْحُ عَنْهُ . »

لَمْ خَاطَبَ الْخَلِيفَةُ الْمَرَاتِنِ وَالْجُنْدِيَّ وَالْعَبِيدَ الْأَسْوَدَ ، بَعْدَ أَنْ بَدَأَ عَلَيْهِ اسْتِبَاؤُهُ مِنْ خَادِمَةِ إِبْرَاهِيمَ ، وَقَالَ لَهُمْ : « عَلَى الْعَرَبِيِّ أَنْ يُكْرِمَ ضَيْفَهُ وَيَسْمَلَهُ بِرِعَائِيهِ . » وَامْتَدَّحَ الْجُنْدِيَّ الشُّجَاعَ وَزَوْجَتَهُ ، وَلَكِنَّهُ أَطْلَبَ فِي مَدْحِ الْعَبِيدِ الْأَسْوَدَ ، وَأَمَرَ بِإِعْتَاقِهِ ، وَتَفْحَهُ بَعْضَ الْعَمَالِ . وَقَدْ أَصْبَحَ هَذَا الْعَبْدُ مِنْ أَفْضَلِ جُنُودِ الْخَلِيفَةِ .

طارق بن زياد

يُفَصِّلُ الْمَغْرِبَ عَنْ إِسْبَانِيَا مَمَرٌ مَائِي ضَبِيقٌ يُطْلَقُ عَلَيْهِ اسْمُ « مَضِيقِ جَبَلِ طَارِقٍ » وَإِلَى الشَّمَالِ مِنْهُ يَقَعُ جَبَلُ طَارِقٍ . وَقَدْ يَسْأَلُ الْبَعْضُ : « لِمَ اكْتَسَبَ الْمَضِيقُ وَالْجَبَلُ هَذَا الْأَسْمَ ؟ » لَقَدْ سُمِّيَا بِاسْمِ الْفَاتِدِ الْعَرَبِيِّ الشُّهَيْرِ طَارِقِ بْنِ زِيَادٍ الَّذِي عَبَّرَ بِجَيْشِهِ مِنْ الْمَغْرِبِ بِجَلَالِ هَذَا الْمَضِيقِ إِلَى الْبَحْرِ الْمُتَوَسِّطِ ، وَفَتَحَ إِسْبَانِيَا .

مُنْذُ زَمَنٍ طَوِيلٍ ، ثَوَالِثُ الْفَتْوحَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ حَتَّى شَمَلَتْ مَا بَيْنَ النَّهْرَيْنِ (الْعِرَاقِ) ، وَبِلَادِ فَارِسَ ، وَجُزْأِهَا مِنَ الْهِنْدِ ، وَبِلَادِ الشَّامِ وَمَا يَقَعُ إِلَى شِمَالِهَا . كَمَا امْتَدَّتْ الْفَتْوحَاتُ فَشَمَلَتْ مِصْرَ وَشِمَالَ إفْرِيقِيَّةَ ، ثُمَّ اتَّجَهَتْ غَيْرُ الْفَادَةِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى أَوْرُشَلِيمَ ، وَكَانَتْ إِسْبَانِيَا أَقْرَبَ بَلَدٍ أَوْرُشَلِيمَ إِلَيْهِمْ .

وَفِي الْمَغْرِبِ كَانَ يُعَسِّكِرُ جَيْشٌ عَرَبِيٌّ ، صَغِيرٌ فِي عَدْدِهِ ، قَوِيٌّ بِجُنْدِهِ ، يَتَوَلَّى قِيَادَتَهُ طَارِقُ بْنُ زِيَادٍ ، الَّذِي عُرِفَتْ عَنْهُ الشُّجَاعَةُ ، وَالْبِرَاعَةُ فِي فُنُونِ الْقِتَالِ .

بَنَى طَارِقُ بَعْضَ الْكُسُفِيِّنَ وَاتَّقَلَّ بِجُنُودِهِ وَخِيُولِهِمْ غَيْرَ الْبَحْرِ الْمُتَوَسِّطِ إِلَى إِسْبَانِيَا قَبْلَ أَنْ يَكُونَ مِنْ ١٢٠٠ سَنَةٍ . أَصْبَحَ طَارِقُ

وَجَيْشُهُ عَلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ ، الْبَحْرُ مِنْ وَرَائِهِمْ وَالْعَدُوُّ أَمَامَهُمْ . وَلَمْ يَكُنْ وُصُولُ التَّجَدُّدَاتِ الْعَسْكَرِيَّةِ مِنَ الْمَغْرِبِ مُتَسِّرًا .

كَانُوا يَقِفُونَ أَمَامَ جَيْشٍ قَوِيٍّ فِي عَدْدِهِ وَعُدَّتِهِ بَلَّغَ ثَلَاثًا وَمِائَةَ أَلْفٍ مُقَابِلَ ، بَيْنَمَا لَمْ يَزِدْ عَدَدُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى سَبْعَةِ أَلْفٍ .

أَذْرَكَ طَارِقُ الْخِصَابَ الَّتِي يُوَاجِهُونَهَا ؛ فَسَفُنَ الْعَرَبِ قَلِيلَةً ، وَفَرَصَ الْخَنَازِيرَ ضَيْلَةً . وَلَوْ هَرَمُوا لَقَضَى الْإِسْبَانُ عَلَيْهِمْ ؛ إِذَا رَأَى أَنَّ الْوَضْعَ يَعْنِي الْإِثْبَارَ أَوْ الْمَوْتَ .

أَمَرَ طَارِقُ بَعْضَ رِجَالِهِ بِإِخْرَاقِ الْكُسُفِيِّ . وَمَا إِنْ رَأَى جُنُودَهُ الْتِيَارَانَ تَلْتَهُمْ سَفْنُهُمْ حَتَّى انْتَابَهُمُ الْخَوْفُ ، طَلَبًا مِنْهُمْ أَنْ الْأَعْدَاءُ قَدْ خَرَقُوا . أَخَذُوا بِصُرُخٍ : « لَقَدْ انْتَصَرَ الْعَدُوُّ عَلَيْنَا . سَيَكُونُ مَصِيرُنَا الْمَوْتَ . »

عِنْدَهَا وَقَفَ فِيهِمْ طَارِقُ حَاطِبًا . قَالَ : « لَقَدْ أَمَرْتُ بِإِخْرَاقِ الْكُسُفِيِّ . أَيُّهَا النَّاسُ ! أَيْنَ الْمَقَرُّ ؟ الْبَحْرُ مِنْ وَرَائِكُمْ ، وَالْعَدُوُّ أَمَامَكُمْ ، وَلَيْسَ لَكُمْ وَاللَّهِ إِلَّا الصُّدُوقُ وَالْكَسْبُ . أَيُّهَا النَّاسُ ! مَا فَعَلْتُ مِنْ شَيْءٍ فافْعَلُوا بِمِثْلِهِ . إِنْ خَمَلْتُ فَاخْمِلُوا ، وَإِنْ تَوَقَّضْتُ فَفَقِّفُوا . اخْمِلُوا حَمَلَةَ رَجُلٍ وَاجِدٍ ، وَاهْرَمُوا أَعْدَاءَكُمْ . إِنَّا هَاهُنَا بِاقْرُونِ وَلَكِنْ نَتَرَجَّحُ إِسْبَانِيَا . »

وَمَا إِنْ كَثُرَ طَارِقُ حَتَّى اتَّذَفَعَ الْفَرَسَانُ الْمُسْلِمُونَ يَطْلُبُونَ



الشهادة لِنَكُتَبَ لَهُمُ الْحَيَاةُ . وَأَمَامَ ضَرَبَاتِ الْمُسْلِمِينَ الْقَاتِلَةِ ،
أَخَذَ الْإِسْبَانُ يَتَرَايَعُونَ ، ثُمَّ وَلَّوْا هَارِبِينَ يَطْلُبُونَ النِّجَاةَ لَأَنْفُسِهِمْ .
وَلَحِقَ الْمُسْلِمُونَ بِقُلُوبِهِمْ فَأَوْقَعُوا بِهِمْ خَسَائِرَ فَادِحَةً .

دَامَ حُكْمُ الْعَرَبِ فِي إِسْبَانِيَا أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِمِئَةٍ وَثَمَانِينَ سَنَةً .
وَمَعَ رَايَاتِ الْإِسْلَامِ ، رَفَرَفَ الْقَدْلُ وَالْحُرْيَةُ ، وَبَدَأَ الْعَهْدُ الذَّهَبِيُّ
فِيهَا . لَقَدْ نَشَرَ الْعَرَبُ الْعِلْمَ وَالْحَضَارَةَ فِي إِسْبَانِيَا ، وَسَرَّعَانَ مَا
اتَّشَرَا فِي رُبُوعِ أُوْرُتَّةِ الَّتِي كَانَتْ غَارِقَةً فِي ذِيَابِجِرِ الْجَهْلِ وَالْتَحْلُفِ

الْحَضَارِيِّ . وَلَوْ دُرِّتْ إِسْبَانِيَا الْيَوْمَ ، لَشَاهَدَتْ الْكَثِيرَ مِنَ الْعِبَانِي
الْقَرْيَةِ الْجَمِيلَةِ الَّتِي شَيَّدَهَا . مَتَرَى قَصْرَ الْحُمْرَاءِ فِي مَدِينَةِ غِرْنَاطَةِ ،
وَالْجَامِعَ الْكَبِيرَ فِي فَرْطَبَةِ . لَقَدْ فَقَدَ الْعَرَبُ إِسْبَانِيَا لِكَيْتُهُمْ خَلَفُوا مَا
يَشْهَدُ بِعَظَمَتِهِمْ .

فَتَحَ الْعَرَبُ إِسْبَانِيَا بِفَضْلِ الْقَائِدِ الْعَظِيمِ طَارِقِ بْنِ زِيَادٍ الَّذِي
أُحْرِقَ السُّفْنُ ، وَبِتَّ فِي جُنُودِهِ رُوحَ الْإِسْتِيسَالِ فِي الْقِتَالِ ، فِي
سَبِيلِ نُصْرَةِ الْإِسْلَامِ . حَقًّا لَقَدْ حَارَبُوا فَانْتَصَرُوا .

صلاح الدين الأيوبي

صلاح الدين الأيوبي من أعلام الحكام المسلمين ، وفائد مرموق من عظماء قاذبهم .

لَمْ تَقْتَصِرْ شُهْرَةُ صَلَاحِ الدِّينِ عَلَى الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ ، بَلْ امْتَدَّتْ إِلَى الْقَارَةِ الْأُورُيَّةِ . عَاصَرَ الصَّلَيبِيِّينَ فِي فَلَسْطِينَ ، وَحَارَبَهُمْ ، وَانْتَصَرَ عَلَيْهِمْ وَأَخْرَجَهُمْ مِنْ دِيَارِ الْإِسْلَامِ .

لَقَدْ سَبَقَ لِمُلُوكِ أوروْبَةِ أَنْ حَشَدُوا جُيُوشًا مِنْ أَهْلِاءِ مُخْتَلِفَةٍ فِي أوروْبَةِ وَقَادُوا إِلَى فَلَسْطِينَ ، وَاعْبَاهُ أَنْ الْمُسْلِمِينَ يَمْنَعُونَ الْحُجَّاجَ الْمَسِيحِيِّينَ مِنْ زِيَارَةِ الْأَمَاكِينِ الْمُقَدَّسَةِ . وَلَكِنْ ادَّعَاهُمْ بِاطِلَ ، فَالْكَنَائِسُ كَانَتْ مَفْتُوحَةً ، يَحُجُّ إِلَيْهَا مَنْ أَرَادَ دُونَ أَنْ يَتَعَرَّضَ الْمُسْلِمُونَ لَهُمْ . لَمْ يَقْدِمِ الصَّلَيبِيُّونَ لِهَذَا السَّبَبِ وَإِنَّمَا لِأَسْبَابٍ أُخْرَى .

اسْتَمَرَّتِ الْحَمَلَاتُ الصَّلَيبِيَّةُ لِحِمَايَةِ السُّنَنِ ، اسْتَوَلَوْا بِحِلَالِهَا عَلَى أَجْزَاءٍ مِنْ بِلَادِ الشَّامِ وَالَّتِي تُضَمُّ سُوْرِيَا وَلُبْنَانَ وَالْأَرْدُنَّ وَفِلَسْطِينَ . وَقَدْ تَوَجَّهُوا فَتُوحَاتِهِمْ بِالْإِسْتِيلَاءِ عَلَى مَدِينَةِ نَيْبِ الْمُقَدَّسِ .

كُلُّ مَنْ يَزُورُ بِلَادَ الشَّامِ لَا بُدَّ أَنْ يُشَاهِدَ الْقِلَاعَ الْقَدِيمَةَ الَّتِي بَنَاهَا الصَّلَيبِيُّونَ عَلَى قِمَمِ الْأَهْضَابِ لِلِاجْتِمَاعِ فِيهَا مِنْ غَارَاتِ الْعَرَبِ .

حَارَبَ الْعَرَبُ الصَّلَيبِيِّينَ زَمَنًا طَوِيلًا لِيُطْرِدَهُمْ مِنْ الْبِلَادِ الَّتِي اخْتَلَوْهَا . وَقَدْ اسْتَطَاعَ صَلَاحُ الدِّينِ أَنْ يُلْجِئَ بِهِمْ شَرَّ خَزِيمَةٍ ، وَذَلِكَ فِي مَعْرَكَةِ حِطِّينَ الشَّهِيرَةِ فِي الشَّامِ مِنْ فَلَسْطِينَ . وَفِي عَامِ ١١٨٧ م (أَلْفٌ وَوَقْعَةٌ وَسِتُّمِائَةٍ وَثَمَانِينَ) خَلَصَ صَلَاحُ الدِّينَ مَدِينَةَ نَيْبِ الْمُقَدَّسِ مِنَ الصَّلَيبِيِّينَ . وَبِهَذَا طَوَيْتَ آخِرَ صَفْحَةٍ مِنْ سِجِلِّ اغْتِصَابِ الصَّلَيبِيِّينَ لِلْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ ، بَدَأُوا عَلَى أَرْضِهَا ، يَتَسَجَّبُونَ نَهَائِيًا إِلَى بِلَادِهِمْ .

وَمَا قِصَّةُ صَلَاحِ الدِّينِ مَعَ السَّلِيلِ رِيْشَارْدِ قَلْبِ الْأَسَدِ إِلَّا نُمُودَجٌ لِمَا كَانَ يَتَخَلَّى بِهِ مِنْ كَرِيمِ الْخُصَالِ وَحَمِيدِ الْأَخْلَاقِ . لَقَدْ كَانَ وَدِيعًا حَلِيمًا ، مُجِبًّا لِعَمَلِ الْخَيْرِ ، لَا يَفْرُقُ بَيْنَ أَمِيرٍ وَحَقِيرٍ فَقَدْ وَلَدَ الْجَمِيعَ أحرارًا .

وَمَا نَحْنُ نُوْرِدُ الْقِصَّةَ كَمَا حَدَّثَتْ ، قِصَّةَ الْإِلْقَاءِ بَيْنَ صَلَاحِ الدِّينِ وَرِيْشَارْدِ قَلْبِ الْأَسَدِ :

نَعْلَمُ أَنَّ عِدَّةَ مَعَارِكٍ قَدْ جَرَتْ بَيْنَ صَلَاحِ الدِّينِ وَرِيْشَارْدِ ، وَكَانَ جُنُودُ الْمُسْلِمِينَ يُحَارِبُونَ بِكُلِّ شَجَاعَةٍ لِيُطْرِدَ الْغَزَاةَ مِنْ دِيَارِ الْإِسْلَامِ . وَلَمَّا نَالَ الْإِغْيَاءُ مِنَ الصَّلَيبِيِّينَ طَلَبُوا السَّلَامَ ، وَكَانَ أَمَامَ

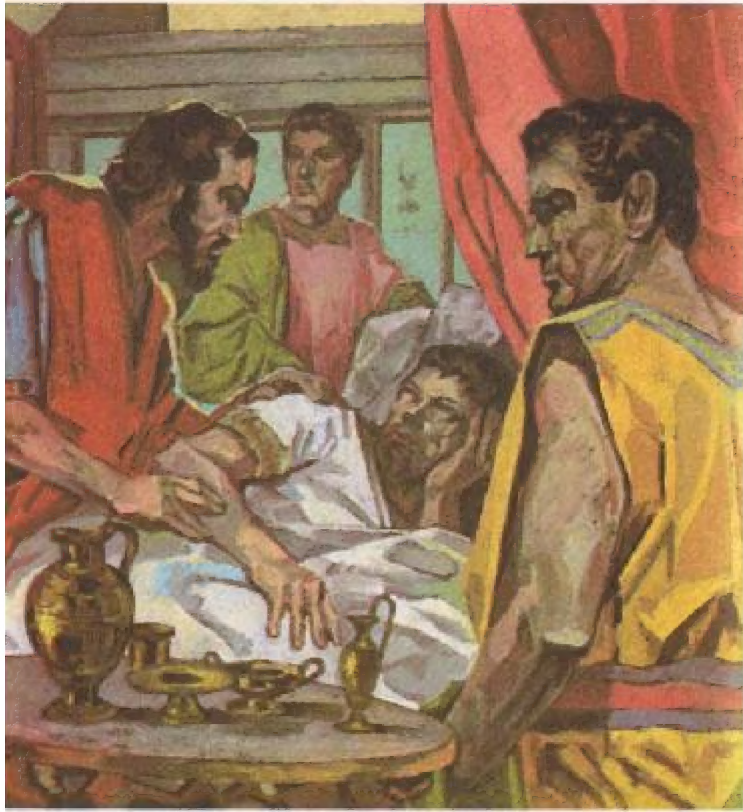
صلاح الدين إما الاستمرار في القتال أو قبول السلم . وأخيراً ،
ورغم ما حققه من انتصارات في معظم المعارك التي خاضها ،
عقد اتفاقية سلام مع ريتشارد .

أرادت بعض السيدات من عائلة ريتشارد زيارة الكنيسة ، وطلبن
من صلاح الدين السماح لهن بذلك . فأجابهن إلى طلبهن بكل
لطف ، ولم يضايقهن أي جندي وهم في الطريق إلى الكنيسة .
وفي طريق عودتهن بلغ مسامع صلاح الدين قولهن بأن ريتشارد
يشكو المرض بسبب الحمى التي أصابته .

كان من السهل على صلاح الدين أن يغتنم فرصة مرض ريتشارد ،
وغدو وجود القائد الصالح نيابة عنه ، فيخوض معركة جديدة .
ولكن شرفه وكرامته فرضا عليه الالتزام باتفاقية السلام .

استدعى صلاح الدين بعض الأطباء وألباهم بمرض ريتشارد
بالحمى . وكان الأطباء العرب آنذاك هم المتميزين والمتفوقين
في الطب . أمرهم أن يصنعوا علاجاً للحمى . أخذ العلاج معه ،
وهو في ثياب طبيب ، وقصد معسكر ريتشارد بصحبة خادمه . وما إن
وصل إلى معسكر ريتشارد حتى قال لهم : « أنا طبيب ، وقد جئت
لعلاج مليككم . » ولكن الصليبيين لم يثقوا بقوله ، بل صرخوا

قائلين : « لن يرسل صلاح الدين طبيباً لعلاج ريتشارد . وما جئت
إلا لقتل مليكنا . » ومنعوه من الدخول على المليك .
لكن ريتشارد سمح للرجل بالدخول ، وقال لمن حوله :



« سَأَمُوتُ بِكُلِّ تَأْكِيدٍ إِنْ لَمْ يَقُمْ الطَّبِيبُ بِعِلَاجِي . أَذْخِلُونِي ، فَقَدْ
يُعْطِينِي دَوَاءً نَاجِعًا . »

وَبَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ تَنَاوُلِ الدَّوَاءِ ، فَارَقَتِ الْحُمَى بِشَارْدَ ،
وَرَحَلَ الطَّبِيبُ دُونَ أَنْ يَكْشِفَ عَنْ هَوِيَّتِهِ .

وَالْيَكْمُ قِصَّةٌ قَصِيرَةٌ أُخْرَى تُدَوِّرُ حَوْلَ صِلَاحِ الدِّينِ :

فِي جَنُوبِ الْأُرْدُنِّ تَقَعُ مَدِينَةُ الْكَرَّكِ ، وَفِيهَا قَلْعَةٌ خَصِيصَةٌ جِدًّا ،
أَعْجَزَتْ الْعَرَبَ عَنْ أَقْبَحَامِهَا وَالْإِتِّصَارِ عَلَى الصَّلَيبِيِّينَ فِيهَا . وَكَانَ
الصَّلَيبِيُّونَ يُقَاتِلُونَ الْعَرَبَ فِي الْأَمَاكِينِ الْقَرِيبَةِ مِنَ الْقَلْعَةِ ، فَعَزَمَ
صِلَاحُ الدِّينِ عَلَى الْتِرَاعِهَا مِنْهُمْ . وَفِي الْيَوْمِ الْكَاسِيَنِ لِلْمَعْرَكَةِ ،
سَمِعَ بَعْضُ الْعَرَبِ مُوسِيقَى تَتَبَعَتْ مِنْ أَحَدِ أَنْبَاجِ الْقَلْعَةِ ، وَكَانَ
الْمَوْجُودُونَ فِيهِ يُعْتَوْنَ وَيَرْفُضُونَ عَلَى أَنْغَامِهَا . أُرْسِلَ صِلَاحُ الدِّينِ
بَعْضُ جُنُودِهِ لِيَكْتَشِفُوا سِرَّ الْمَوْسِيقَى ، فَوَجَدُوا أَنَّهُ سَتَقَامُ فِي تِلْكَ
الْلَّيْلَةِ حَفْلَةُ زَوَاجٍ .

كَانَ الْجُنُودُ الْعَرَبُ عَلَى أَثَمِّ اسْتِعْدَادٍ لِحُوضِ الْمَعْرَكَةِ . أَمَرَهُمُ
صِلَاحُ الدِّينِ أَنْ يَبْدُؤُوا الْمَعْرَكَةَ فِي الصَّبَاحِ بِالْإِسْتِيلَاءِ عَلَى الْقَلْعَةِ ،
عَلَى أَلَّا يَقْتَرِبُوا مِنَ الْبَرْجِ . وَكَانَتْ أَوَامِرُهُ إِلَيْهِمْ : « ابْتَعدوا عَنِ
الْبَرْجِ ، فَالْحَرْبُ وَالزَّوْاجُ لَا يَجْتَمِعَانِ . »

فِي الصَّبَاحِ بَدَأَتِ الْمَعْرَكَةُ ، وَحَارَبَ الْمُسْلِمُونَ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ
مِنْ نَوَاجِي الْقَلْعَةِ مَاعِدَا الْبَرْجِ . وَفِي الْبَرْجِ انْتَفَوْا بِالْعُرُوسَيْنِ وَلَكِنَّهُمَا
لَمْ يَمْسُوهُمَا بِسُوءٍ بَلْ أَكْرَمُوهُمَا . وَاسْتَضَافَ صِلَاحُ الدِّينِ
الْعُرُوسَيْنِ أَيَّامًا عَدِيدَةً ، ثُمَّ سَمَحَ لَهُمَا أَخِيرًا بِالذَّهَابِ أُنَّى أَرَادُوا بِلَا
قِيُودٍ عَلَى تَحْرُكَاتِهِمَا .

اقْتَتَلَ الْجَيْشَانِ فِي مَعَارِكٍ أُخْرَى . وَسَمِعَ الْمَلِكُ بِشَارْدَ مُضَادَّةَ
الْقِصَّةِ الْحَقِيقَةِ عَنْ هَذَا الطَّبِيبِ ، لِذَلِكَ أَعْرَبَ عَنْ عَدَمِ رَغَبِيَّتِهِ فِي
قِتَالِ جَيْشِ صِلَاحِ الدِّينِ بِقَوْلِهِ :

« أَنَا لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أُحَارِبَ مَنْ أُنْقَذَ حَيَاتِي . كَيْفَ يَطِيبُ لِي أَنْ
أَقْتُلَ مَنْ أُنْقَذْتُ مِنَ الْمَوْتِ ؟ »

عَقَدَ بِشَارْدَ مُعَاهَدَةً صُلْحٍ ثَانِيَةً مَعَ صِلَاحِ الدِّينِ وَعَادَ إِلَى وَطَنِهِ
إِنْجِلْتِرَا . وَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَمُرَّ بِفَرَنْسَا الَّتِي سَاعَدَتْهُ مَلِكُهَا فِي
فِلَسْطِينَ . فَمَا كَانَ مِنْ مَلِكٍ فَرَنْسَا إِلَّا أَنْ سَجَنَ بِشَارْدَ . وَلَمَّا
سَمِعَ الشَّعْبُ الْإِنْجِلِيزِيُّ بِمَا حَدَثَ لِلْمَلِكِ ، دَفَعَ أَمْوَالًا طَائِلَةً وَذِيَّةً
لَهُ . إِنْ بَيْنَ تَصَرُّفِ صِلَاحِ الدِّينِ وَتَصَرُّفِ مَلِكِ فَرَنْسَا فَارِقًا كَبِيرًا .
لَقَدْ اتَّسَمَ تَصَرُّفُ صِلَاحِ الدِّينِ بِالرَّحْمَةِ وَالنَّسَامَةِ لِلدِّينِ أَمْرٌ بِهِمَا
الدِّينُ الْكَثِيفُ .

الحكايات اللطيفة

- ١ - حكايات من ألف ليلة وليلة
- ٢ - البطة الصغيرة القبيحة وقصص أخرى
- ٣ - الجواد الأسود الشجاع
- ٤ - حكايات من تاريخ العرب
- ٥ - الصندوق العجيب وقصص أخرى
- ٦ - الحذاء السحري وقصص أخرى
- ٧ - أليس في بلاد العجائب
- ٨ - حورية النار وقصص أخرى
- ٩ - أولاد الغابة



مَكْتَبَةُ لِبْنَان
سَاحَةُ رِيَّاضِ الصَّلَح - بَیروت

رقم مرجع كمبيوتر 01 C 198 604